مركز دراسات المعرفة والحضارة
Center of Knowledge and Civilization Studies

دراسات | 2020

من مظاهر تكريم الإنسان في:
"المرجعية الدينية" و "المرجعية اللادينية"

الدكتور سعيد شبار
رئيس المجلس العلمي المحلي لبني ملال
أستاذ التعليم العالي بكلية الآداب والعلوم الإنسانية ببني ملال
المغرب

جميع الحقوق محفوظة © 2020
All rights reserved © 2020

لجنة الإعلام والتواصل

إن أفضل تكريم لباحث ومفكر نذر نفسه للبحث والفكر، وأخذ يقدم للناس زبدة أعماله، هو أن يرى انعكاس ذلك على قرائه وعلى الناس، وتأثيره فيهم واستجابتهم أو رفضهم له، بحيث يمنحه ذلك قوة إضافية على المضي في الطريق أو فرصة للمراجعة والتصحيح. ولما كنت واحدا من قراء الدكتور المسيري وجدتني منجذبا إلى نماذجه التفسيرية ومناهجه في المقاربة والتحليل القائمة على أساس التتبع الجزئي في السياق الكلي، والخاص في السياق العام، للقضايا المعرفية المدروسة.

بل والتي تزود القارئ وتمنحه قدرة معرفية ومنهجية إضافية، وتسلحه بحس نقدي إضافي تجاه ما يقرأه، لدرجة . وكما أشعر شخصيا ومن غير مبالغة أو إطراء . تستطيع أن تؤثر على سلوكه وعمله اليومي، وذلك راجع . فيما أعتقد . إلى قدرتها على التجريد والإقناع النظري من جهة، وإلى دقتها في التشخيص والتنزيل أو التطبيق العملي من جهة أخرى.

وجدت أيضا أن موضوع "الإنسان" مركزي جدا في أبحاث الكاتب ودراساته، سواء تعلق الأمر بـ "الإنسان الطبيعي" أو بـ "الإنسان الرباني"، ولما كانت المناسبة تكريم "إنسان /إنسان" وهي الصيغة التأكيدية التي يحرص عليها الكاتب أحيانا في مقابل "إنسان/مادة"، فضلت أن تكون ورقتي هذه مثيرة لبعض جوانب مظاهر تكريم الإنسان في المرجعيتين المذكورتين "المادية الواحدية" "الحلولية الكمونية" ذات الفلسفة "العلمانية الامبريالية الشاملة" و"الثنائيات الصلبة".. ثم "المرجعية المتجاوزة " أو "المرجعية الروحية" ذات الفلسفة المستوعبة

لقضايا الإنسان في ارتباطه بالطبيعة وفي انفصاله عنها واستقلاله بذاته وخصائصه (الثنائيات الفضفاضة).

وكما هو واضح في العنوان والسياق، قصدت استعمال وتوظيف مصطلحات الكاتب وأحيانا نماذجه في مقاربة الموضوع من خلال إسهاماته وإسهامات مفكرين وباحثين آخرين.

تختلف مظاهر تكريم الإنسان في المرجعيتين باختلاف فلسفة هذا الأخير فيهما، فهو يستقي مبادئه ومفاهيمه وتصوراته ودوره في هذا الوجود وغايته فيه.. في المرجعية الروحية الإلهية التوحيدية، الإسلامية خصوصا باعتبارها آخر الرسالات تصديقا وهيمنة، من الوحي الإلهي تسديدا وتوجيها، تكليفا واستخلافا، إشهادا وإرشادا.. وباعتباره أيضا أجدر خطاب بتحديد حقيقة الإنسان، ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: 14]، فإنه في المرجعية الأخرى كان يتحدد ذلك كله، في تجربة ما قبل النهضة الحديثة، من طبيعة المرحلة التاريخية التي تجتازها حضارة الغرب والأنماط الاجتماعية والثقافية السائدة فيها، مما جعل فلسفة هذا الكائن المحددة لقيمه في الوجود، تكون عرضة لتقلبات هذه المراحل التاريخية وإلى أن جاءت مرحلة النهضة الحديثة والاستنارة والعقلنة والترشيد لتحدد بشكل كلي وجذري مرجعيته المادية الطبيعية الواحدية ضمن الثنائيات العلمانية الصلبة، فقد كانت صورة الإنسان تتجلى في الحضارة "الفلسفية" اليونانية في "الإنسان العاقل"، في العهد الروماني، وهي صورة "الإنسان المصارع والمحارب"، الإنسان الجسد الصالح والنافع لبسط نفوذ روما على العالم (وهي شبيهة إلى حد ما من حيث رؤيتها المعرفية إلى نفعية النازية الحديثة)، جاءت الكنيسة أيضا لترسم صورة أكثر تطرفا للإنسان، صورة الإنسان "المتطهر" المنسلخ من رغباته وتطلعاته

الفطرية "الراهب المتبتل" .. إلى أن آل الوضع إلى عصر النهضة الأوروبية لتظهر الفلسفات الاستنارية التي تطرفت على الواجهة المادية في مقابل التطرف اللاهوتي الكنسي وكانت ذات نزعات شمولية كليانية أسست وبشكل عميق الأصول المعرفية للعلمانية الشاملة الآن، كالداروينية والفرويدية والماركسية والوجودية والعقلانية والوضعية والنيتشوية... إلخ، وهي وإن اختلفت في مقاربة ثنائية الذات والموضوع والتمركز على أحدهما: الإنسان، أو العقل، أو الطبيعة.. فإنها تنتهي حلوليا وكمونيا إلى تقرير رفض المطلق والمتجاوز وتعويض الواحدية الإلهية بالواحدية المادية بكامل أنساقها وقوانينها ونظمها، حيث تم التركيز على الجانب النفعي والإنتاجي في الإنسان الذي تحول من جديد إلى "آلـة" يحكمها منطق الربح ورأس المال على حساب القيم والأخلاق وكل ما هو "جواني" في هذا الإنسان، وكما يقول د المسيري : "فقد صاحب تزايد هيمنة الفلسفات المادية عدم الاكثرات بالأخلاق باعتبارها قيما مثالية غيبية غير مادية وغير كمية، فقدت أي إطلاق وأصبحت حقائق اجتماعية نسبية ترد بأكملها لجذورها الاجتماعية المادية، أي أن المجتمع أصبح هو مصدر القيمة الأخلاقية وليس الموضوع الذي يحاكم من منظور هذه القيمة، وأصبحت الدولة هي التي تقرر ما هو خير وما هو شرير، ما هو نافع وما هو ضار، ومن ثم تراجعت العقيدة الدينية وانحسر الإيمان بالمطلقات المعرفية والأخلاقية، وبدأت محاولات لتأسيس علم أخلاق يستند إلى القوانين العلمية والحسابات الرياضية الدقيقة. بحيث أصبحت الأخلاق هي المنفعة واللذة، وأصبح الهدف من الحياة هو البحث عنها، وتعظيم الإنتاج والدخل، وهي أهداف تتسم بأنها كمية مادية يمكن قياسها ولا علاقة لها بغيب أو أسراره"[2].

وجوهر فكر حركة الاستنارة يمكن اختزالها حسب الباحث دائما. في عنصرين مهمين:

- التركيز على عنصر الطبيعة باعتبارها منسقة مع نفسها وتتحكم فيها مجموعة من القوانين الواضحة البسيطة المطردة، وحيث ثمة قانون طبيعي يهدي الإنسان في سلوكه.

- التسليم بقدرة العقل الإنساني على الوصول إلى الحقيقة بمعرفة قوانين الطبيعة وأنظمتها من خلال التجربة والملاحظة دون حاجة إلى وحي إلهي[3].

إذا عدنا إلى الثقافة الإسلامية، نجد نظرة الإسلام إلى الإنسان تنطلق من وظيفة هذا الأخير في الكون، المتمثلة في عبادة الخالق وفق سننه الدينية الشرعية والكونية القدرية﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: 56]، فيكون لحياة الإنسان بذلك هدف وغاية، ينفيان عندها العبثية والنفعية والركون إلى مطلب من مطالب الجسد أو النفس والانقياد الكامل له دون ضوابط أو مقيدات كما أن لحقيقة الرجوع إلى الله تعالى والمثول أمامه للحساب بعد نفسي إيماني كبير يحفز على تحسين الأداء العملي وتوجيهه نحو قيم الخير والصلاح فردا وجماعة، ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون:115]، وكفى الإنسان في ظلال الإسلام تكريما أن يكون محور الحياة والأداة الفاعلة والمقررة فيها بما حباه الله من نعم وقدرات، ولما فضله وسخر له من مخلوقات، ﴿۞وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: 70].

وإذا كان الإسلام من جهة قد حرر الإنسان المسلم من استرقاق المخلوقات الأخرى بمبدأ التوحيد إذ " كمال الحرية في كمال التوحيد " كما يقرر علماء العقيدة، فإنه من جهة أخرى جرد معيار التفاضل بين المسلمين عن كل مقياس مادي إذ جعله "التقوى" قيمة معنوية

مجردة لا ترتبط بزمان أو مكان، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾ [الحجرات: 13]، ثم ركز من خلال أحكامه وحكمه وتشريعاته على خاصية الاعتدال والتوازن والوسطية. في الإنسان عادة وعبادة، وكي لا يجنح إلى أحد تطرفين: التطرف الروحاني أو الترهب المسيحي، والتطرف المادي في ظل علمانية جزئية أو شاملة تقوم على أساس تلبية نداءات الجسد المادي وحدها، لذا نجده يطوق جيد هذا الإنسان بحقيقتين كبيرتين تعصمانه من الذل والمهانة والتنكر الكامل للذات كما تعصمانه من الاستكبار والاستعلاء والتشييء الكامل للذات.

الحقيقة الأولى. كما عند د. رمضان البوطي. تذكره بمهمته في هذا الكون التي هي العبادة، عن طريق الاستخلاف وتحمل الأمانة وتعمير الأرض وبناء الحضارة... وهو بهذا المعنى سيد في هذا الكون معزز فيه ومكرم ومفضل إذا ما التزم الاعتدال والاستقامة.

والحقيقة الثانية تنبهه إذا ما طغى وتجبر وخرج عن خط الوسطية والاعتدال إلى أصله وخلقته الأولى، إذ هو مخلوق تافه أصله الأول من تراب وسلالته من ماء مهين والشأن فيه إن طالت به الحياة أن يُرَدَّ إلى أرذل العمر كي لا يعلم من بعد علم شيئا.

"فالإنسان في كينونته الذاتية عبد مملوك لله عز وجل، خلق من ضعف وينتهي إلى ضعف، ولكنه نظرا للرسالة التي حملها يتمتع بصفات نادرة جهزه الله بها فاستهل بموجبها الرفعة والتكريم، ورجل الحضارة الإسلامية هو الذي ربي في ظلال هاتين الحقيقتين"[8]، نفس المعنى نقرأه عند الكاتبة المقتدرة د. عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ)، والتي تذهب إلى

التمييز بين "الإنسان" و"البشر" و"الإنس" في السياقات والاستعمالات القرآنية، فـ"الإنسان" ليس مناط إنسانيته، فيما نستقرئ من آيات البيان المعجز، كما تقول. مجرد كونه منتميا إلى فصيلة الإنس، كما أنه ليس مجرد بشر يأكل الطعام ويمشي في الأسواق، وإنما الإنسانية فيه ارتقاء إلى الدرجة التي تؤهله للخلافة في الأرض واحتمال تبعات التكليف وأمانة الإنسان، لأنه المختص بالعلم والبيان والعقل والتمييز، مع ما يلابس ذلك كله من تعرض للابتلاء بالخير والشر، وفتنة الغرور بما يحس من قوته وطاقته، وما يزدهيه من الشعور بقدره ومكانته في الدرجة العليا من درجات التطور ومراتب الكائنات، بحيث ينسى في نشوة زهوه وكبرياء غروره أنه المخلوق الضعيف الذي يعبر رحلة الدنيا من عالم المجهول إلى عالم الغيب، على الجسر المفضي حتما إلى حفرة من تراب: ﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ فَلِلَّهِ ٱلْأَخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ﴾ [النجم: 24-25].

ولا يكتفي الإسلام بتقنين التوازن على المستوى الفردي، بل ينقله إلى المستوى الجماعي أيضا، فنجده تارة يرغب في الحياة وملاذها، وأخرى يصرف عنها ويدعو إلى آخرة أفضل وأبقى.

وهذا ما يفسر أيضا الثنائيات "الفضفاضة" أو المستوعبة التي يوفرها هذا الدين لاحتضان وترشيد الكائن البشري بعيدا عن الواحديات الصلبة والتمركز الحاد، ففي ثنائية (الدنيا/الآخرة) نقرأ قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [آل عمران: 14-15]. وأيضا: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ

﴿وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ أَمَلٗا﴾ [الكهف: 46]، نقرأ كذلك ...[12]، وأنكر الحق سبحانه على من يقول: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٖ﴾ [البقرة: 200]، وأرشد إلى قول: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ حَسَنَةٗ وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: 201] ، هذه المعرفة العميقة الواضحة هي التي وعاها الجيل الأول واستوعبها علما وعملا وأسس في رحابها عالميته الإسلامية الأولى، نجد هذا واضحا في تعبير بليغ لصحابي جليل غير معدود في علماء أو فقهاء الصحابة، ربعي بن عامر وهو يجيب قائد الفرس : "الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام".

إنه تحطيم للأوثان الصلبة المتمركزة حول الذات (عبادة ا لعباد)، أو حول الموضوع (عبادة الدنيا الضيقة) وفسح مجال الانطلاقة للروح لتبدع إلى جانب جسدها.

ولم يجانب فيلسوف الحضارة المعاصر مالك بن بني رحمه الله الصواب حيث وصف هذه المرحلة (مرحلة الصدر الأول) بمرحلة الروح أو الطاقة الحيوية المبدعة والخلاقة والباعثة على العمل في حدوده القصوى.

لقد عبر ربعي بن عامر عن ثلاثة من مبادئ وأصول هذا الدين الكبرى: التوحيد المنافي لعبادة المخلوقات، الحرية المنافية لضيق الدنيا، العدل المنافي للجور، وهي مبادئ وأصول ما تزال تشكل مطالب الإنسانية التحررية إلى الآن.

لا ينحصر التكريم الإلهي للإنسان في دائرة الولاء لعقيدة الإسلام، بل يتجاوز ذلك إلى التكريم في إطار الولاء الإنساني العام، ولهذا جاء الإسلام بتغييرات جذرية لكثير من قضايا الإنسان، نذكر منها على سبيل المثال معالجته لظاهرة الرق قصد تصفيتها، والتي اعتبرت في الحضارات القديمة والعصور الوسطى، بل إلى مشارف القرون الأخيرة ظاهرة اجتماعية طبيعية، ونذكر كذلك رفعة لأشكال عديدة من الظلم والحيف الذين لحقا بالمرأة طوال قرون، ومحاربته لكل أشكال الاستغلال والاستبداد والنفوذ التي يعلو بها إنسان على إنسان، ولصور الميوعة والانحلال التي ينزل بها إنسان عن الإنسان... إلخ.

إذا سمى ابن نبي المرحلة الأولى السالفة بـ "مرحلة الروح" حسب مقياس القيم الأخلاقية والنفسية في التطور، فإنه يسمي المرحلة الثانية ب "مرحلة العقل" حيث ساد علم الكلام والفلسفة، واستغرقت العقل الجدالات النظرية التي أملاها بشكل كبير تحدي الفكر الوافد وتفريعات المذاهب الفقهية ... وبالرغم من كون هذه المرحلة عرفت في آخرها خصوصا جمودا حادا للعقل وتكريسا لمظاهر التعصب والتقليد، ولم تعرف بلورة ولا تطويرا للعلوم الإنسانية والاجتماعية كما تبلورت وتأصلت وتقعدت علوم نقلية وأخرى عقلية نظرية، فإن "مبحث الإنسان" بقي فيهما خافتا معروضا من خلال مسائل كلامية اعتزالية خصوصا، كمسائل: الجبر والاختيار، والقضاء والقدر، ومرتكب الكبيرة، وخلق أفعال العباد... إلخ، ومن خلال بعض المباحث الفقهية، كالعرف والعادة... والنوازل وغيرها.

أما المرحلة الثالثة والأخيرة فيسميها "مرحلة الغريزة"، حيث طغيان نزعات التملك والأنانية والمتتاليات المادية الواحدية، والاستلاب للنموذج الحداثي العلماني الغربي، ولا فرق بين ما ذهب إليه ابن نبي وما يؤكده د. المسيري هنا، ففي الوقت الذي يميز فيه ابن نبي بين "عالم الإنسان" تجاه "عامل الأشياء" و"عالم الأفكار"، ويعتبر أن مرحلة الغريزة، هي سحب عملي للإنسان من عالم إنسانيته وأفكاره ودمجه في إطار ولاء كامل ووحيد لعالم أشيائه، أي عملية تشييء كاملة. يذهب د. المسيري أيضا إلى أن ما يحدث هو إلغاء ثنائية "الإنسان/الطبيعة"، أي ثنائية "الجنس البشري/ الأشياء" ليسود عالم الكم والأرقام والنماذج الاختزالية الاستهلاكية البسيطة التي قد تعطي من يستخدمها راحة كبيرة وتحقق له متعة ولذة ظرفية، لكنها تفكك الإنسان ثم تقتله، وهذه إحدى غايات الفلسفة التفكيكية السائدة الآن في الغرب.

لنعد مرة أخرى إلى الغرب نفسه، لكن هذه المرة مع واحد من أبنائه ومن أبرز نقاده، أقصد الكاتب إريك فروم (Erich Fromm) في كتابه القيم "نتملك أو نكون To have or to be" والذي ترجم إلى عنوان "الإنسان بين الجوهر والمظهر"، حيث يرى صاحب الكتاب أن السبل تضيق بالإنسانية في ظل النظم الحالية، وأن أشكال المجتمعات الغربية الحالية تدفع بالإنسان إلى الاختلال والاضطراب، ولا بد في نظره من بناء مجتمع جديد يقوم على علم جديد للإنسان وقضاياه، يتغير بموجبه نظام القيم والأخلاق الراهنة ويتخذ موقفا جديدا من الطبيعة، مجتمع جديد يقوم على أساس الكينونة والوجود على أساس الأنانية والتملك، مجتمع

يعطي الاعتبار للإحساس والشعور والوجدان والعقل والتعاون والإيخاء والمحبة بدل اعتبار الإنتاج والربح ومنطق المنفعة وسحق "الإنسان الحر" في "الإنسان الآلة"، ولهذا فهو يحكم على العصر الصناعي بأنه أخفق في الوفاء بـ "وعده العظيم" الذي هو تحرير الإنسان والعيش في المجتمع الحر، إذ تزايد عدد المدركين للحقائق التالية :

- أن إشباع كل ما يعن للناس من رغبات بغير قيود لا يوصل للحياة الطيبة، وليس هو السبيل إلى السعادة ولا حتى إلى المتعة القصوى.

- أن حلمنا (الغرب) بأن نكون السادة الأحرار لحياتنا قد انتهى وذلك عندما بدأنا نتنبه إلى أننا جميعا قد أصبحنا مجرد تروك في الآلة البروقراطية.

- أن التقدم الصناعي ظل مقتصرا على الأمم الغنية وأن الهوة التي تفصل هذه الأمم على الأمم الفقيرة تزداد اتساعا يوما بعد يوم.

- أن التقدم التكنولوجي نفسه خلق مخاطر (ايكولوجية) بيئية وطبيعية، ومخاطر الحرب النووية... وهذه أو تلك أو كلتاهما معا، يمكن أن تكون السبب في إنهاء أشكال الحضارة وربما كل أشكال الحياة على ظهر هذا الكوكب.

وهكذا أصبح الإنسان كلما اقترب من نموذج "السوبرمان" كلما ازداد فقره واكتشف عجزه عن أن يكون فعلا واحديا مكتفيا بذاته، ويرجع فروم إخفاق الوعد العظيم للعصر الصناعي إلى المقدمتين النفسيتين اللتين بني عليهما:

أ. جعل الهدف من الحياة: السعادة، أي تحقيق أقصى متعة وإشباع أي رغبة دانية تعن للمرء (مذهب اللذة الراديكالي).

ب . كون الأنانية والسعي لتحقيق المصلحة الشخصية والجشع . وهي الصفات التي يولدها النظام من أجل تسيير أموره . تفضي إلى الانسجام والسلام[10].

وهي أمور لم تؤد إلا إلى إلغاء الإنسان وسحبه من عالمه التراحمي (الجواني) ودمجه في نظام طبيعي مادي صارم وصلب، البقاء فيه للأقوى.

ويمكن للمرء أن يلاحظ إذا ما أتيحت له فرصة الاحتكاك بديار الغرب حقيقة هذا التصور، الغرب الذي عاش تجربة تاريخية مريرة بين المرجعيتين: التوحيدية المسيحية كما قدمتها الكنيسة، والمادية الواحدية كما قدمتها التيارات الفكرية الاستنارية، حيث تمت عملية علمنة كاملة للثالوث التوحيدي الذي يقدمه نظام الكنيسة إلى ثالوث واحدي مادي يقدمه نظام الطبيعة، فبدل الأب والابن والروح القدس أركان " الفردوس الأخروي" أصبح، العمل والأكل والنوم أركانا لـ"الفردوس الأرضي" البديل، وحيث تم تحويل الإنسان (حوسلته حسب تعبير المسيري الخاص) إلى أداة وظيفية تنفيذية وحسب .

ولكل واحد من تلك "الأقانيم المادية" فلسفته الخاصة ولواحقه ولوازمه الواقعية في إطار التصور المرجعي العلماني طبعا، فالعمل مصدر الرزق، والحرص عليه حرص على هذا المصدر، والانضباط والجدية مبعثها الاستزادة والاستكثار من الربح والمال الذي هو قوام الحياة المقدسة، وليس في هذا التصور مصدر آخر للرزق يلجأ إليه عند انقطاع الأسباب، أي اعتقاد في الله الرزاق والتوكل عليه بعمل وبدون عمل، أما الأكل فإنه لا يقتصر على تلبية مطلب ضروري للكائنات الحية من أجل البقاء، لكن يتعداه إلى نوع من الشراهة والحرص والتقنين بل والترشيد والعقلنة حسب منطق السوق، حيث تخترقه أيضا القيم العلمانية لتسلب عنه كل حميمية عائلية واجتماعية وتكرس فيه النزوع الفردي إلى المتعة واللذة، وقل مثل ذلك في النوم الذي يمكن اختزاله في الجنس الذي تم ترشيده علمانيا ترشيدا كاملا حيث أصبح الجسد كتلا لحمية مجردة لا عن الثياب وحسب، بل وعن القيم والأخلاق والأسرار التي هي جزء لا يتجزأ من طبيعة النفس البشرية، وحيث وصل الترشيد إلى تقنين أشكال معروفة من الشذوذ والمماثلة والنوع الواحد، وحسب د. المسيري: "إن هذا الدفاع الشرس عن الشذوذ الجنسي والدعوة إلى تطبيعه، أو التطبيع معه، هو في جوهره ليس دعوة للتسامح أو لتفهم وضع الشواذ جنسيا، بل هو هجوم على المعيارية البشرية وعلى الطبيعة البشرية كمرجعية نهائية وكمعيار ثابت يمكن الوقوف على أرضه لإصدار أحكام وتحديد ما هو إنساني وما هو غير إنساني، والشذوذ الجنسي هو محاولة أخرى لإلغاء ثنائية إنسانية أساسية هي ثنائية الذكر/الأنثى التي تستند إليها المعيارية الإنسانية"[16].

ومع إيريك فروم دائما، الفارق بين الكينونة والتملك هو "الفارق بين مجتمع محوره الأساسي الناس، وآخر محوره الأساسي الناس، وما يميز المجتمع الصناعي الغربي هو التوجه التملكي حيث أصبحت شهوة تملك المال والشهرة والسلطة.. هي الموضوع المسيطر على الحياة "[17]، إلى درجة بدأ يسود فيها الشعور بالخوف المستمر من فقدان ما يملكه الإنسان، خوف من اللصوص والتقلبات السياسية والاقتصادية والثورات والموت. "فيتحول الإنسان إلى كائن مشغول بالدفاع عن نفسه، تتملكه الحاجة لامتلاك مزيد من الأشياء التي ينشد فيها مزيدا من الحماية" [18]، وقد انعكست نزعة التملك هذه على كثير من مجالات عمل ونشاط الإنسان، بل وعلى لغته وخطابه اليومي كما على عواطفه ومشاعره... ورصد الكاتب لذلك نماذج توضيحية كثيرة.

فعلى المستوى اللغوي مثلا لاحظ تزايدا مطردا في استعمال الأسماء مع تقلص استعمال الأفعال، ذلك أن الأسماء هي الرموز المناسبة للأشياء، كقولك: أملك سيارة أو منزلا... بينما الأفعال هي الرموز المناسبة للنشاط والفعل، كقولك: أبني، أنظف، أكره، أحب... فكان تزايد استخدام الأسماء تعبيرا عن تلبية نزعة التملك في الإنسان، ومثل لذلك بشخص يعرض نفسه على طبيب نفساني، شخص فيه نزعة تملك حادة، يخاطب الطبيب بقوله: يا دكتور أنا عندي مشكلة، عندي أرق، عندي دوار وصداع، وعلى الرغم من أن عندي منزلا لطيفا وأطفالا ظرفاء، وزوجا سعيدا، إلا أن عندي هموما كثيرة، يقول فروم معلقا: "لو جرى مثل هذا الحديث منذ بضعة عقود لقال هذا القائل: أنا قلق، بدلا من: أنا

عندي قلق، ولا أستطيع النوم أو لا أنام، عوض: أنا عندي أرق، وأعيش في بيتي سعيدا، عوض: أنا عندي أولاد وعندي زوج وعندي منزل... وهكذا يكون التعبير بالأفعال تعبيرا عن الكينونة، أي عن إنسانية الإنسان واحترامه للآخر وما حوله بدل اعتباره ملكا له"[19]، ويسمي فروم الشخصية ذات هذا النزوع بـ "الشخصية التسويقية" لأنها تقوم على ممارسة الشخص لذاته كسلعة، ولقيمته "كقيمة تبادلية" لا "كقيمة انتفاعية".

جانب آخر مهم جدا من الجوانب التي يظهر فيها الفرق بين المرجعيتين، وهذه المرة في شريحة إنسانية غير منتجة وليست لها قيمة تبادلية كفئة المسنين والمتقاعدين خاصة، الشريحة التي كان يعبر عنها في الأنظمة الشمولية كالنازية بـ "الأفواه الآكلة غير المنتجة" "Useless Eaters"، والتي يعبر عنها في نظام العولمة الحالي الشمولي الكلياني بـ "المواطنون الفائضون عن الحاجة" "Surplus People"، وعلى كل سواء تعلق الأمر بالأنظمة الشمولية النازية أو "الديموقراطية" الليبرالية، فإن منهجية التخلص تبقى واحدة كما يذهب د. المسيري، أي تحكمها رؤية معرفية إمبريالية تعتمد في الأنظمة الأولى طريقة "التسخين" بواسطة الأفران والمحارق الغازية كما حدث لقطاعات المسنين والمرضى الميؤوس منهم واليهود وأحيانا الجرحى الألمان أنفسهم... وتعتمد في الأنظمة الثانية طريقة "التبريد" بواسطة الملاجئ والمحاضن وبيوت العجزة والمسنين... أي التحييد والعزل المنهجي لإنسانية الإنسان وكينونته الاجتماعية.

وفي الولايات المتحدة الأمريكية هنالك توجه نحو إنشاء مدن من نوع خاص للعجزة والمتقاعدين، لكن ليس على الأساس الخيري الإنساني، بل على أساس الغنى والجاه، أي عملية ترشيد جديدة نفعية لهذا القطاع، على غرار مدينة "سان سري " المعروفة بمدينة الشمس الواقعة بولاية أريزونا والبالغ عدد سكانها حوالي خمسة وأربعين مليون نسمة، وقاطن هذه المدينة النموذجية لا بد أن تتوفر فيه ثلاثة شروط:

- أن يتوفر على منزل بالمدينة شراء أو كراء..
- أن يكون له مصدر مالي يكفيه لمصاريف عيشه وتكاليف الحياة.
- أن يتجاوز عمره خمسا وخمسين سنة.

وما أجمل أن تقرآ في القرآن الكريم عن هذه الشريحة قوله تعالى: ﴿۞وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا﴾ [الإسراء:23-27]، و كذلك ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [لقمان: 14-15]، لكن للأسف دالت حضارة لها مرجعية وقامت حضارة لا مرجعية لها، فالغرب لم يعرف هداية الوحي الصحيح

وقد حرفت دياناته ثم اجتاحه بعد ذلك طوفان العلمانية الهادر الذي جعله يتنكر لكل مطلق ومتجاوز أو مركز ثابت خارج عن (الطبيعة/المادة) التي حلت محل المرجع الغائب.

ليس في الحديث، أخيرا، عن الغرب بهذا الشكل أي تنكر لمنجزاته العلمية ومدنيته الهائلة وقوته الضاربة.. ذلك أننا رمنا ملامسة قضية محددة جوهرية تتعلق بكينونة الكائن البشري في هذا الخضم الصاخب، وبالرغم من ذلك يمكن الاستدراك على كون تلك " القوة الضاربة " تخضع للعوامل النفسية والثقافية ذاتها، للترشيد العلماني الممنهج ذاته، وللتفسير المادي الواحدي (ربح، إنتاج، رأسمال، أسواق، استهلاك، لذة، متعة...) ذاته، حتى المفاهيم الأشد ارتباطا بكرامة الإنسان كالحرية والحقوق، والتعددية، والأمن... لا تجد لها تطبيقا ولو نسبيا. في إطار المنظومة. إلا داخل الغرب نفسه، أما خارجه فإن القوة الضاربة تتحول إلى عصا غليظة يهش بها الغرب على غنمه، وهل يحتاج النهار أو الليل إلى دليل؟!

هـوامـش:

1- المســيري عبد الوهاب: الرؤية المعرفية الامبريالية، مجلة منبر الشــرق من 2-ع7 – 1413-1993 – ص 57 وما بعدها.

2- نفس المرجع: ص: 4.

3- اليوطي محمد سعيد رمضان: منهج الحضارة الإنسانية في القرآن، دار الفكر. ص: 45 وما بعدها.

4- عبد الرحمن عائشة (بنت الشاطئ): القرآن وقضايا الإنسان، دار المعارف ص: 19-20.

5-

6- فروم إيريك: الإنسان بين الجوهر والمظهر نتملك أن نكون، ترجمة سعد زهران، عالم المعرفة (140) ص 20-21.

7- المسيري: نموذج تفسيري وتصنيفي جديد، بحث مرقون: ج1/ص 120.

8- إيريك فروم، (سابق) ص: 39.

9- نفسه: ص: 113.

10- نفسه: ص: 41.

مركز دراسات المعرفة والحضارة
Center of Knowledge and Civilization Studies

maarifa-center.com

maarifa2011@ gmail.com

facebook.com/almaarifa.centre

All rights reserved © 2020

جميع الحقوق محفوظة© 2020

لجنة الإعلام والتواصل